

مكانة البيئة في التشريع الإسلامي.

د. جدي عبد القادر

جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة

يعود الاهتمام بالبيئة إلى عهود طويلة، فهو ليس وليد هذا العصر، ولا هو نازلة جديدة من نوازله، ذلك أن البيئة هي الوسط المكاني يعيش فيه الإنسان، بما يضم من عناصر حية وغير حية يتأثر بها، ويؤثر فيها⁽¹⁾. ولأنها كذلك فإن اهتمام الإنسان ببيئته هو جزء من اهتمامه بحياته، وطريقة من طرائق عمارته للأرض، و ضمان لاستمرار وجوده. لكن مع ما أفرزه هذا العصر من معطيات علمية و انجازات تقنية و توسع عمراني و كثافة بشرية، اشتد الاهتمام بالبيئة لما صار للعوامل السابقة من آثار مزدوجة على البيئة والإنسان، فهي من جهة سهلت حياة البشرية و أعطتها عوامل الرفاه و النجاح، ومن جهة أخرى كان فيها الكثير من الضرر على البيئة ، إذ أصابتها بمفاسد كبيرة تولدت من التعسف في استخدامها، و المبالغة في استثمارها، فتنادى الناس

(1). ضاوي العجمي، الإنسان وقضايا البيئة، دار الفكر، ص : 6.

مكانة البيئة في التشريع الإسلامي.....د جدي عبد القادر

لحماية البيئة من فعل الإنسان، و ظهرت جماعات محلية ودولية ضاغطة هدفها تنبيه الصناعيين و السياسيين إلى المخاطر الجنة المحدقة بالأرض و الإنسان جراء التوسع في النشاطات التسليحية و الصناعية و الكيماوية .

4- البيئة في القرآن: البيئة مفهوم واسع، فهي مرتبطة بالإنسان تأثرا وتأثيرا، فقد جاء في تعريفها:

مجموع العوامل الطبيعية والبيولوجية والعوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تتجاوز في توازن وتؤثر على الإنسان والكائنات الأخرى بطريق مباشر أو غير مباشر.

و القرآن الكريم اهتم بكل عناصر البيئة تنبيها للإنسان و إرشاد له إلى الهدى الصحيح في التعامل معها.

- فالاهتمام بالبيئة من شعب الإيمان بل من قضايا الأساسية.

- و في عديد من الآيات يمتن القرآن على الإنسان بنعمة البيئة، وأسلوب الامتنان في القرآن فيه تنبيه إلى أهمية الممتن به و هو سائر عناصر البيئة، مما يقتضي السعي إلى إعمارها و صلاحها و حمايتها من كل ما يخل بها أو يفسد جزئياتها، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين، والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون﴾⁽¹⁾. فكما نرى أن الآية تنبه إلى مكنم النعمة في عناصر البيئة حتى يجتهد الانسان في التفاعل الإيجابي معها، و لأن هذا التفاعل هو حقيقة من حقائق الإسلام لله.

⁽¹⁾ سورة النحل، آية : 80-81.

و قرر القرآن أن التوازن البيئي حقيقة واقعية و شرعية، يؤثر الإخلال به على جميع المخلوقات و الموجودات قال تعالى : ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾⁽¹⁾، وقال تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾⁽²⁾، فلكل مخلوق وظيفة مقدرة له سلفاً، تبدأ من أصغر المخلوقات وتنتهي بأكبرها كلها تسير وفق توازن بديع، ونظام محكم، قال تعالى : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾⁽³⁾.
فالإخلال بميزان الكون هو السبب للدمار والتلوث، وقد أرشدنا المولى عز وجل بالنظر إلى هذه السموات السبع المتناسقة، في تكوينها ووظائفها واتجاهها، فكلها محكومة بقانون واحد، تتعاون في وظائفها لخدمة هذا الإنسان الذي كرمه الله تعالى⁽⁴⁾، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾⁽⁵⁾، وقال تعالى : ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا، رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا﴾⁽⁶⁾.

ومن أضرار الإخلال بالتوازن البيئي ما تنبه له علماء البيئة وهو ما عرف باسم "الأمطار الحمضية" التي تنزل بسبب تجمع غازات سامة في الغلاف الجوي نتيجة لما تنفثه معامل الإنسان الكيماوية، وعوادم السيارات ومصادر توليد الطاقة وغيرها.
و هذا التوازن تتجلى حقيقته أيضا في تربة الأرض، واختلاف أصناف المزروعات فيها، فبعض الأرض سهول وبعضها ربوات و هضاب، وبعضها

(1) سورة الحجر، آية : 19.

(2) سورة القمر، آية : 49.

(3) سورة الفرقان، آية : 2.

(4) أنظر : تفسير البضاوي (4/450).

(5) سورة المؤمنون، آية : 17، وانظر : تفسير المارودي (4/49).

(6) سورة النازعات، آية : 27-28، وانظر : تفسير البضاوي (5/448).

جبال راسيات، و أكثرها مسطحات مائية، و يخضع توزيع الزراعة و أصناف النبات إلى طبسيعة التربة و مدى قربها من المياه، و حسب توزيعها على الأقاليم ، و اختلاف المناطق في مناخاتها من حيث الحرارة و الاعتدال و البرودة.كل هذه العناصر محسوبة بدقة لأن لها أثرا في تنوع المزروعات و ثراء معطيات الطبيعة. قال تعالى : ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقي بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فلي الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾⁽¹⁾.

في هذه الآية إشارة إلى حقيقة علمية بيئية، وهي أن من الأرض قطع مختلفة، بعضها طيبة تنبت الزرع وبعضها سبخة، وبعضها رخوة، وبعضها صلبة وبعضها يصلح الزرع وبعضها بالعكس⁽²⁾، كلها آيات وعلامات لقوم يعقلون، فيستعملون عقولهم بالتفكر، ويتفكرون في قدوة المولى عز وجل وفي المحافظة على هذه النعم⁽³⁾.

وقال تعالى : ﴿أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زراعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾⁽⁴⁾. فقد ربطت الآية بين الماء والأرض و الزرع تنبيها للاهتمام بالزراعة، و سعيها إلى توفير مصادر المياه، لأن الماء هو أهم عنصر بيئي بل هو مصدر الحياة، لذلك عبر القرآن بقوله نسوق الماء ليشير إلى أن وجود الماء في الأرض محسوب و مصادره متجددة لا

⁽¹⁾ سورة الرعد، آية : 4.

⁽²⁾ أنظر : تفسير ، البضاوي (317/3).

⁽³⁾ عبد العزيز خليفة القصار، الشريعة الإسلامية و حماية البيئة، مجلة الشريعة و القانون، كلية

الشريعة و القانون بالأزهر، ع1999، 21

⁽⁴⁾ سورة السجدة، آية : 27.

تنضب، لكن هذا قد لا يكفي وحده لعمارة الأرض ، إذ يجب على الإنسان أن يوفر عوامل نقل المياه و سوقها إلى مناطق الإعمار، لذلك كان إنشاء السدود جزء من خطة المحافظة على البيئة و حمايتها، و كلما اجتهد الإنسان في الاستفادة من المسطحات المائية و حفظ مياه الأمطار كلما نجح في معركة الغذاء و الزراعة.

فأرشدنا المولى عز وجل في هذه الآية إلى فوائد الأرض الطيبة المزروعة، ومن المعلوم أن المساحات المزروعة هي مصدر أمان للبيئة البرية، ويعتقد علماء البيئة أن الاحتطاب الجائر للغابات و غير المدروس في سفوح جبال الهملايا في نيبال كان سببا في حدوث فيضانات بنغلاديش، وهو السبب أيضا في جرف حوالي 250 مليون طن من الطمي سنويا إلى بنغلاديش نتيجة لتعرية التربة في سفوح الهملايا⁽¹⁾.

ومن المعلوم أيضا أن الاحتطاب الجائر -وهو قطع لأشجار والشجيرات واستغلالها بمعدل يفوق قدراتها التجديدية أو التعويضية بما يؤثر سلبا على رصيدها- هو أحد الأسباب الرئيسية للتصحّر الذي تعاني منه كثير من الدول⁽²⁾ و لقد حذر القرآن من تلويث البيئة، و اعتبر ذلك إفسادا في الأرض ، و تناقضا مع مبدأ خلافة الإنسان في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽³⁾.

⁽¹⁾ محمد الصباريني : الإنسان والبيئة، دار الفكر، ص : 139.

⁽²⁾ زين الدين عبد المقصود : قضايا بيئية معاصرة، دارالبحوث والثقافة، الكويت، ص : 226.

⁽³⁾ سورة البقرة، آية : 30.

مكانة البيئة في التشريع الإسلامي.....د.جدي عبد القادر

فانظر كيف قدم الله في نص الآية الإفساد في الأرض على سفك الدماء، للتنبيه على أن الذي يلوث البيئة يسهل عليه سفك الدماء، لأن الثاني من مستلزمات الأول.

ولينبه أيضا إلى أن تلوث البيئة مهلك كالقتل بل أعظم خطرا منه، لأن القتل فيه إزهاق لروح أو اثنين أو ثلاث، أما ما يلوث البيئة فهو يعرض الآلاف والملايين للقتل البطيء بسبب ما ينتج عنه من الأمراض المزمنة وغيرها من الأوبئة المهلكة للملايين من البشر، والزروع والثمار والحيوان⁽¹⁾.

البيئة في السنة:

لعل اهتمام السنة النبوية بالبيئة يعجزنا عن تتبعه واستقراءه، لشمول هذا الاهتمام لكافة عناصر البيئة، و لكثير القضايا التي أرشدت إليها السنة، ونهت وعي المسلم إليها :

-فمن ذلك ما رواه جابر- رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سرق منه له صدقة وما أكل السبع منه فهو له صدقة وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه أحدا إلا كان له صدقة"⁽³⁾.

- وعنه رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على علي أم مبشر الأنصارية في نخل لها فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : "من غرس هذا النخل أمسلم أم كافر؟ فقالت : بل مسلم، فقال : لا يغرس مسلم غرسا ولا يزرع زرعاً فيأكل منه إنسان ولا دابة ولا شيء إلا كانت له صدقة" وعنه أيضا

(1) محمد رشوان :تلوث البيئة، دار الثقافة والنشر ص : 48.

(2) رواه البخاري في المزارعة حديث رقم (2152) ومسلم في كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع حديث رقم (2903)، أنظر : صحيح مسلم بشرح النووي (213/5).

قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا يغرس رجل مسلم غرسا ولا زرعاً فيأكل منه سبع أو طائر أو شيء إلا كان له فيه أجر"، وقال ابن أبي خلف : طائر شيء"⁽¹⁾.

ففي هذه الأحاديث : توجيهات خاصة بالزراعة، و أنها من المطلوبات، لهذا حث النبي على الزرع والعرس في الأرض الفضاء، بل جعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك من قبيل الطاعات التي يثاب عليها الإنسان يوم القيامة، ولا شك أن الزراعة من الوسائل التي تحمي البيئة، وتعالج الآثار الناجمة عن التصحر⁽²⁾. كما أن الزراعة لا تقتصر ثمرتها على الإنسان فقط في تغذيته، بل تمتد آثارها للحيوان مما ينبىء باهتمام الاسلام بالدورة الطبيعية للحياة، فالزراعة والاهتمام بالغرس شامل و مقصود لذاته لذلك عد من شعب الإيمان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المسلمون شركاء في ثلاث، في الماء والكلاء والنار"⁽³⁾.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لا يمنع أحدكم فضل ماء، ليمنع به الكلاء"⁽⁴⁾. و مثلهما من نصوص السنة التي تقر أن الماء بالقدر الوفير في الكوكب هو ملك للجميع ملكية انتفاع، و هذا الحكم من شأنه أن يبعد الماء و مصادره من ساحة الصراع الدولي، فلا تتخذ دولة

⁽¹⁾ رواه مسلم في كتاب المساقاة باب فضل العرس والزرع حديث رقم (2904)، وانظر

صحيح مسلم بشرح النووي (214/5).

⁽²⁾ الصباريني، الإنسان والبيئة، ص : 139.

⁽³⁾ رواه ابن ماجه في كتاب الأحكام باب المسلمون شركاء حديث رقم (2463) (826/2).

⁽⁴⁾ رواه ابن ماجه في كتاب الأحكام باب النهي عن منع فضل الماء حديث رقم (2469)

(828/2).

مكانة البيئة في التشريع الإسلامي..... د جدي عبد القادر
وسيلة للضغط و الإكراه ضد دولة أخرى و لو كانت مصادر الماء أو منابعه في إقليمها.

فالوسط الذي يعيش فيه الإنسان وما به من إمكانيات مشاعة هي ملك للجميع -هذا في غير المحرز منه أي المباح العام- .
و في السنة العديد من الآداب العملية الخاصة والعامة، أرشدت النصوص إليها و دعت المسلم إلى التمسك بها، وجعلها عادات حياتية مألوفة، و هي تحمل مضامين بيئية، تمنع عنه كل مظهر من مظاهر التلوث التي قد تجلب إليه الأمراض والأوبئة، ومن ذلك ما يلي :

- الوضوء : وهو من الوضوء وهي النظارة والنظافة والحسن⁽¹⁾

ولا شك أن الوضوء الشرعي من مظاهر النظافة الذي يعود بدوره على نظافة البيئة الجسمية للإنسان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هي يبقى من دونه شيء ؟، قالوا : لا، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا"⁽²⁾.

بل جاء معنى النظافة مؤكدا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : "الطهور شطر الإيمان"⁽³⁾، فالنظافة نصف الإيمان، وهي داخلة في صلب الدين.

(1) أنظر المصباح، ص : 223 - المغرب، ص : 487.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه -كتاب مواقيت الصلاة- باب الصلوات الخمس كفارة - (11/2) - حديث رقم (528) وأخرجه مسلم -في صحيحه - كتاب المساجد ومواضع الصلاة- باب المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا وترفع به الدرجات - (463-462/1) حديث رقم (667).

(3) أخرجه مسلم في صحيحه -كتاب الطهارة- باب الوضوء - (203) - حديث رقم (223).

- سنن الفطرة :

فعن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
"عشرة من الفطرة : قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء،
وقص الأظافر، وغسل البراجم⁽¹⁾، وتنف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص⁽²⁾ الماء
والمضمضة"⁽³⁾.

- نظافة الأواني:

لم تغفل الشريعة الإسلامية عن موضوع الأواني لارتباطها الوثيق بصحة
وسلامة الإنسان لهذا حرصت الشريعة الإسلامية على نظافة الآنية، حرصا منها
على حماية البيئة البشرية الجسدية للإنسان.

فوردت عدة أحاديث على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، تعلن الحرب
على التلوث ومكافحته، منها ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : "طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله
سبع مرات أولاهن بالتراب"⁽⁴⁾.

ومنها أيضا ما روي عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "غطوا الإناء، وأوكؤا السقاء، فإن في

(1) البراجم : رؤوس السلاميات من ظهر الكف، إذا قبض الشخص كفه نشزت وارتفعت -
المصباح، ص : 42.

(2) والمراد بانتفاض الماء هو الاستنجاء.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه - كتاب الطهارة - باب خصال الفطرة - (223/1) - حديث رقم
(261).

(4) رواه مسلم في كتاب الطهارة، حديث رقم (91-234/1).

السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء"⁽¹⁾.

حماية التشريع الإسلامي للبيئة:

كشف الكثير من الباحثين على مستوى الرسائل العلمية في الجامعات، كما بينت الكثير من الندوات والملتقيات العلمية مدى اهتمام التشريع الإسلامي بالبيئة، وأنه اعتبر المسألة من قضايا العقائد والإيمان، وأنها من محققات المقاصد الخمس، فحفظ البيئة وجوداً وعدماً، يثمر حفظ نفس الإنسان من الهلاك والأذى، كما أن جوهر الدين لا يتحقق إلا بوجود مكلف عاقل سليم في بدنه وعقله ونسله وماله. فلو تصورنا أن تلوث البيئة هو الواقع فسنجد أنفسنا في بعد عن إمكانية استمرار الاستخلاف في الأرض وإعمارها وأداء وظيفة العبودية، إذ يتهدد الفساد كلية النفس بآثار التلوث، وفساد الموارد المائية وزيادة الحرارة، كما يتهدد العقم والتشوّهات الخلقية كلية النسل، وهكذا المال والعقل.

و لقد درس المجمع الفقهي الدولي في دورته التاسعة عشرة سنة 2009 قضية حماية الإسلام للبيئة وقرر ما يلي:

تحریم إلقاء أية نفايات ضارة على أي بقعة من بقاع العالم وإلزام الدول المنتجة لهذه النفايات بالتصرف بها في بلادها وعلى نحو لا يضر بالبيئة، مع التزام الدول الإسلامية بالامتناع عن جعل بلادها مكاناً لتلقي أو دفن هذه النفايات .

- تحریم كافة الأفعال والتصرفات التي تحمل أية أضرار بالبيئة أو إساءة إليها مثل الأفعال والتصرفات التي تؤدي إلى اختلال التوازن البيئي، أو تستهدف

⁽¹⁾ رواه مسلم في كتاب الأشربة، أنظر: صحيح مسلم بشرح النووي (13/186).

مكانة البيئة في التشريع الإسلامي.....د. جدي عبد القادر

الموارد أو استخدامها استخداماً جائراً لا يراعي مصالح الأجيال المستقبلية، عملاً بالقواعد الشرعية الخاصة بضرورة إزالة الضرر .

- وجوب نزع أسلحة الدمار الشامل على مستوى جميع الدول، وحظر كل ما يؤدي إلى تسرب غازات تساعد في توسيع ثقب طبقة الأوزون وتلويث البيئة، استناداً إلى القواعد اليقينية الخاصة بمنع الضرر .
ويوصي بما يلي :

- تشجيع الوقف على حماية البيئة بمختلف عناصرها الأرضية والمائية والفضائية .

- إنشاء لجنة لدراسات البيئة من منظور إسلامي بمجمع الفقه الإسلامي الدولي تختص برصد كافة الدراسات والاتفاقيات والمشكلات المتصلة بالبيئة .
- التعاون مع المجتمع الدولي بمختلف الصور في سبيل حماية البيئة ومنع تلويثها، والانضمام إلى الاتفاقيات والعهود الدولية التي تعقدها الدول لمنع التلوث والإضرار بالبيئة، شريطة ألا تتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية أو تحمل أضراراً بالدول الإسلامية .

-حث الدول الإسلامية على تفعيل المنظمات البيئية التي أوجدتها منظمة المؤتمر الإسلامي والهيئات التابعة لها، مع ضرورة التعاون الوثيق مع مجلس التعاون العربي الخاص بالبيئة، وكذلك مجلس التعاون الخليجي المهتم ها .
- الإكثار من الصناعات " صديقة البيئة " ودعمها بكافة الطرق الممكنة .
- حث الدول أعضاء منظمة المؤتمر الإسلامي على الاستمرار في إصدار التشريعات والقوانين المنظمة للبيئة والمانعة من تلويثها مع الاستعانة بسلطة القانون الجنائي بتوقيع العقوبات على الإضرار بالبيئة، وتشديد أجهزة الرقابة

على مختلف التصرفات والأفعال التي قد تحمل الإضرار بأي عنصر من عناصر البيئة: المياه أو الهواء أو التربة .

- مطالبة المؤسسات المعنية بالشؤون الدينية في الدول الإسلامية بتزويد الأئمة والديعاة بالمعلومات البيئية، ونشر الأبحاث والدراسات المتعلقة بالبيئة ووسائل الحفاظ عليها .

- نشر الثقافة البيئية بمختلف الوسائل التي تؤدي إلى نظافة البيئة وحمايتها من كافة المخاطر عن طريق :

- البث المنظم لمخاطر البيئة في وسائل الإعلام .

- التربية السوية، سواء داخل المنازل أو في مناهج الدراسة بمختلف مراحلها .

-الاهتمام بفقهاء البيئة من دراسات الفقه الإسلامي بكلليات الشريعة والدراسات الإسلامية.

إن هذا القرار المهم نبه إلى عدة مسائل، منها مراعاة مصلحة الأجيال القادمة أثناء التصرف في البيئة، و دعوة الدول المسلمة إلى عدم جعل أقاليمه مقبرة للنفايات النووية الخطيرة، كما دعا أعضاء المؤتمر الإسلامي إلى المشاركة في الجهد الدولي لإزالة أسلحة الدمار الشامل و مسربات الغازات السامة المفسدة للجو، و إصدار تشريعات خاصة بالبيئة بل و فتح تخصصات فقهية بيئية في الكليات الشرعية، مع الاهتمام بتربية النشئ على حب البيئة و المحافظة عليها و اعتبار إزالة الأذى عنها من شعب الإيمان.

و يعتبر الحث على التعاون الدولي لحماية البيئة شعور من فقهاء العصر من أن هذه النازلة لا يمكن تحقيق حكم الشرع فيها إلا بالتعاون الدولي، و أن الجهود القطرية مهما عظمت لا تكفي بمجردها لتحقيق النتائج المرجوة.

و إذا تأملنا أحكام التشريع الإسلامي نجده قد وضع خطوات عملية فردية و جماعية للمحافظة على البيئة و حمايتها من جميع أنواع المفسدات و المضار. فعن جابر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنه نهى أن يبال في الماء الراكد"⁽¹⁾، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه"⁽²⁾.

فهذه إرشادات نبوية تحمي المياه من التلوث، فالحديث فيه نهى عن التبول في الماء الراكد الذي لا يجري، والنهي يفيد التحريم كما هو مقرر في علم الأصول⁽³⁾، وإنما جاء النهي خشية تلويث الماء وتنجيسه وإتلاف ماله، والتلويث والتنجيس والإتلاف أمور محرمة في الشريعة الإسلامية.

ومبالغة في الحماية، كره الفقهاء البول والتغوط بقرب الماء، وإن لم يصل إليه لعموم النهي⁽⁴⁾.

وهذه الأحاديث تبين بعد النظر النبوي لمستقبل الأجيال وحماية البيئة المائية التي يستقون منها مواردهم، ولا يقتصر النهي عن تلويث المياه بالبول والغائط فقط، وإنما يشمل كل أنواع التلويث من مياه صرف غير معالج، ومبيدات حشرية ومواد كيماوية وغيرها⁽⁵⁾.

(1) رواه البخاري في كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم، حديث رقم (346/1-239).

(2) رواه البخاري في كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم (346/1) - ومسلم (187/2).

(3) أنظر: شرح مختصر الروضة للطوفي (430/2).

(4) أنظر: شرح صحيح مسلم للنووي (188/2).

(5) القصار، الشريعة الإسلامية وحماية البيئة، 289.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
"اتقوا اللعانين، قالوا وما اللعانان يا رسول الله ؟ قال :الذي يتخلى في طريق
الناس أو ي ظلهم"⁽¹⁾.

لا توجد جريمة بحق البيئة أعظم من التلوّث ولهذا وصف النبي صلى الله
عليه وسلم فعل التلوّث باللعن، وسبب ذلك الوصف الشنيع هو أن الذي
يقضي حاجته في طريق لناس أو في ظلهم وأماكن تجمعهم جالب نفسه لعن
الناس له،

عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله :دلني على
عمل يدخلني الجنة قال : "أمط الأذى عن طريق الناس"⁽²⁾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عيه وسلم قال : "مر
رجل بشوك في الطريق، فقال :لأمبطن هذا الشوك، لا يضر رجلا مسلما، فغفر
له"⁽³⁾.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
"عرضت علي أعمال أمتي -حسنها وسيئها- فوجدت في محاسن أعمالها أن

(1) أخرجه مسلم في صحيحه -كتاب الطهارة- باب النهي عن التخلي في الطرق والظلال،
(226/1)، حديث رقم (269).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه -كتاب البر والصلة والآداب- باب فضل إزالة الأذى عن
الطريق (4/2021 - 2022)، حديث رقم 2617.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه -كتاب الآذان- باب فضل التهجير إلى الظهر (2/139)،
حديث رقم (652)، وأخرجه مسلم في صحيحه -كتاب البر والصلة والآداب- باب فضل
إزالة الأذى عن الطريق (4/2021)، حديث رقم (1914)، بلفظ "بينما رجل يمشي بطريق،
وجد عصف شوك على الطريق فأخره، فشكر الله له فغفر له".

الأذى يماط عن الطريق ووجدت في مساوئ أعمالها النخامة في المسجد لا تدفن"⁽¹⁾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
"الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها
إمالة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان"⁽²⁾.

لأن الإفساد في البيئة مهلكة أيضا للجميع بلا استثناء، فكأن الذي يميظ
الأذى عن الطريق يتسبب في إسعاد الجميع فضلا عن أنه أخلص في عمله ولا
رياء، فما أحوج الناس إلى الحياء الفطري الذي لا يكتسب، الحياء الذي جبلوا
عليه منذ بدء خليقتهم.

فالحياء محل إدراك الزين والشين، وما يرضي وما لا يرضي، بل هو محل
إدراك الحلال والحرام، إن الحياء هو الحياة بعينها، بل هو أسمى من الحياة⁽³⁾
ويكاد يتفق علماء البيئة على أن أهم أسباب التصحر، هو عدم الاهتمام
بالمساحات الزراعية.

في نصوص السنة ما يعد حربا على التصحر، و ذلك ببيان فضل الزراعة
والغرس، وبيان أهمية الزراعة لكل من يعيش على هذه الأرض، ففي الزرع
استمرار تدفق الغذاء لعموم الخلائق، وفي الزرع استمرار إنتاج الأوكسجين، قال
تعالى : ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون﴾⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ رواه مسلم في كتاب المساجد باب النهي عن البصاق في المسجد، حديث رقم (553)،

أنظر : صحيح مسلم بشرح النووي (42/5).

⁽²⁾ رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، حديث رقم (57)، أنظر :

صحيح مسلم بشرح النووي (42/5).

⁽³⁾ محمد رشوان : تلوث البيئة، ص : 65-67.

⁽⁴⁾ سورة يس، آية : 80.

فعن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة وما سُرق منه له صدقة وما أكل السبع منه فهو له صدقة وما أكلت الطير فهو له صدقة ولا يرزؤه⁽¹⁾ أحد إلا كان له صدقة"⁽²⁾.

والناظر إلى هذا الحديث يصل لنتيجة واحدة، وهي أن الإسلام قد شن حربا على المساحات الخالية، وذلك عن طريق زراعتها وإعمارها، إذ جعل الغرس والزرع من أمور القربات التي يؤجر عليها الإنسان عندما ينتفع أي مخلوق بهذا الزرع، ولا شك أن الزرع هو عصب الحياة الأرضية، وعليه قوامها للإنسان وغيره¹.

وفضل الزرع وأجر الزارع مستمر ما دام الزرع والغرس وما تولد منه باقيا إلى يوم القيامة، بل عد بعض الفقهاء أن الزراعة هي أفضل المكاسب⁽⁴⁾. ولهذا جاءت الأحاديث متعاضدة تبين فضل الغرس والزرع حتى عند نهاية الحياة الأرضية، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن قامت الساعة و في يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها"⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ أي ينقصه ويأخذ منه، شرح مسلم للنووي (213/5).

⁽²⁾ أخرجه البخاري في صحيحه -كتاب الحرث والمزارعة- باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه (3/5)، حديث رقم (2320)، وأخرجه مسلم في صحيحه -كتاب المساقاة- باب فضل الغرس والزرع (3/1188)، حديث رقم (1552).

³ - القصار، 291.

⁽⁴⁾ شرح مسلم للنووي (213/5).

⁽⁵⁾ أخرجه البخاري، في الأدب المفرد، باب اصطناع المال، ص : 168-169، حديث رقم (479)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده -مسند أنس بن مالك- (3/183-184-191).

والإسلام لما شرع القتال لم يخالف مبدؤه في حماية البيئة، بل سعى إلى حمايتهم حتى في أثناء الحرب، بل راعى الأخلاق العامة والأدب الإنساني الرفيع.

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال: "أخرجوا بسم الله قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تغلوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الولدان، ولا أصحاب الصوامع"⁽¹⁾.

فالمحافظة على الأخلاق مطلوب حتى في المواطن التي ربما تغيب عنها بسبب ظروف الحقد والغضب، فالمبدأ العام في الشريعة الإسلامية هو المحافظة على البيئة بشتى مجالاتها. بل لقد أوصت السنة الجيش الإسلامي أثناء الحرب إلى عدم استخدام المدمر من الأسلحة، وإلى تجنب الإضرار بالأشجار والمياه والأنهار، لأن القصد في تشريع الجهاد هو كسر شوكة الأعداء و فل حديدهم دون المساس بمظاهر الحياة و أسبابها كما هو مبسوط لأدنى مطلع لكتب الفقه الإسلامي.

⁽¹⁾ أخرجه مسلم في صحيحه -كتاب الجهاد- باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها، (3/1356-1358)، حديث رقم (1731).